الفصل التاسع

التربية الاجتماعية

أولا ــ الصلة بين التربية والمجتمع

يهمنا أن نتساءل ما هى قيمة المجتمع فى الحياة الإنسانية ؟ يعتقد كل فرد أن وجود المجتمع أمر لا غنى عنه . وهو يرى فى اعتقاده هذا أمراً مسلماً به لا يعتوره الشك ، ولكن إدراك التجارب ، والفرص الاجتماعية التى تشكل الفرد تشكيلا تامًّا وتخلقه خلقاً جديداً يتطلب بذل بعض التفكير .

تؤثر البيئة الاجتماعية على الفرد فتخلق منه ذلك الشخص الذى نعرفه بخصاله وصفاته ، فقد كان الرجل البدائى يعيش فى مجتمع صغير محدود وكانت العادات القبلية تسيطر عليه وتشكله كما كانت حياته سلسلة من الإذعان والحرمان . غير أن بعض مظاهر سلوكه وبعض عاداته التى كان يعتقد بصحتها وأنها أمر طبيعى لاغبار عليه ، تبدو الآن شيئاً نابياً . بل وضرباً من الوحشية ، فقد كان مثلا يكره الغرباء ويغدر بهم كما كان يفتك بالضعاف والعجزة ، وكانت عقائده وآراؤه عن طبيعة العالم الذى يعيش فيه آراء سقيمة وسخيفة لا تستحق أن يلتفت إليها لأنها آراء فجة . بدائية تتكون فى جملتها من أساطير صوفية أو خرافات وهمية ، غير أنه اتخذ منها وسيلة لتبرير نظم الحياة القبلية تبريراً منطقيًّا ، ولو عاش هذا المخلوق الذى يمت إلينا بصلة قوية من الناحية البيولوجية ، والذى هو ثمرة اجتماعية محدودة ، لو عاش بين ظهرانينا ولمس حضارتنا واندمج فيها فإننا ندهش كثيراً حين نلاحظ الهوة العميقة التى تفصلنا عنه ، وحين ندرك مقدار تأثير البيئة فى صبغنا بالصبغة التى نحن عليها الآن ، وفى صقلنا ، وتكويننا ككائنات تتمتع بهذه الحضارة . بيد أننا نجد هذا بصورة أصغر ، وأقل وضوحاً

فى جميع الأشياء المحيطة بنا ؛ فالبيئة الاجتماعية فى القرية خلقت تلك الشخصية المعروفة عن الفلاح وطبعته بذلك الطابع المميز له ، كما أنجبت الطبقة الأرستقراطية فى إنجلترا جيلا له صفات ثابتة متميزة لا يمكن أن نخطئها فى الشخصية أو فى النظرة إلى الحياة ، وصفوة القول : أن كل جماعة مستقرة لها فى محيطها الاجتماعى الذى تعيش فيه « خصال مميزة وصفات ثابتة » ، ولذلك لو استطعنا أن نجمع بين أحد سكان « جزيرة سليمان »، وأحد الأرستقراطيين الإنجليز . وتاجر من تجار « نيويورك » ، وبدوى من القبائل العربية ، وفلاح من فلاحى جنوب أفريقيا فى صعيد واحد فإننا برغم الصفات المشتركة بينهم كالخصائص البيولوجية التى ورثها الإنسان فى كيانه ، والقدرة الفطرية — نجد أننا نتعامل مع ضروب من الكائنات الحية البشرية المتباينة أشد التباين ، المختلفة كل الاختلاف إلى حد أنه يتعذر على أحدهم فهم الآخر ، أو أن نكون منهم مجتمعاً حقيقيًّا يسوده التفاهم المتبادل ، فهذه الاختلافات هى نتيجة لاختلاف الوسط الاجتماعى وتباين التجارب التى مر بها كل .

(١) قيمة المجتمع فى الحياة الإنسانية :

ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه يستحيل وجود الشخصية الإنسانية « بدون المجتمع ». فلن يستطيع شخص أن يعيش بمعزل عن المجتمع . وإذا هام إنسان على وجهه فى بيداء واسعة دون أن يعتمد على مساعدات من مجتمعه ، فإنه لا بد وأن يقضى عليه سريعاً لأنه لن يحيا عارياً ، أو جائعاً أو أعزل ، أو شريداً فحسب ، بل إنه سيفتقر أيضاً إلى كل الصفات الذهنية ، وكل أنواع المعرفة والمهارة البشرية ؛ التى يكتسبها الإنسان من وجوده فى المجتمع . وإذا أمكن لإنسان أن ينشأ بأقل مساعدة ممكنة من الآخرين لنموه ، فإنه حين يبلغ العشرين يصير إنساناً فى الشكل والخلقة فحسب ، دون أن تكون له صفات الإنسان العقلية . وهكذا تجده عاجزاً عن الكلام ، محتاجاً إلى العقائد ، والآراء التى تنظم وتوجه حياته العقلية ، مفتقراً إلى القدرة

على استخدام أبسط ، وأعم الأدوات ، وأكثرها ضرورة فى الحياة ومفتقراً إلى تلك الخصال ، والعادات التى تربطه بآداب اللياقة ، وخلاصة القول : إذا استطعنا حرمان فرد من كل الصفات التى يكتسبها من المجتمع فإنه يصير عبارة عن بضعة أرطال من تلك المادة الحية المعروفة « بالبروتوبلازما » ، ويصير مثلها ضعيفاً ، عاجزاً عن وضع الطعام فى فمه ، وتقتصر أحسن أفعاله على سلسلة من الأفعال المنعكسة من بلع وهضم وإخراج .

ونستطيع أن نعبر عن هذه الحالة فى عبارة أخرى فنقول : إن التكيف البشرى يجب أن يتفق مع البيئة الاجتماعية ومع ما تتطلبه من مطالب واحتمالات اجتماعية . وهذا القول صحيح حتى فى الأمور التى نبدو فيها مستجيبين لأمور مادية بحتة ، فأنا حين أجلس على مقعد ، لا أستجيب لأمر مادى يدعو بطبيعته وفى حد ذاته إلى الجلوس ، وإنما أفعل شيئاً يتفق مع نظم المجتمع الذى أعيش فيه ، تلك النظم التى تتطلب من بين ما تتطلبه من المرء الجلوس على المقاعد ، ولكن لو نشأ إنسان فى بيئة لا تعرف المقاعد فإنه حين يرى مقعداً لا يملك سوى أن يحدق فيه ببلاهة . وإذا كانت الأساطير السائدة فى قبيلته قد علمته بأن الشيطان فحسب هو الذى يجلس على المقعد فإنه سيفزع مضيفه بالابتعاد عنه فى خوف ورهبة ، أو قد يندفع ليحطم هذه الأداة اللعينة . فتكيف المرء لا يكون بالنسبة إلى الشىء فى حد ذاته ، وإنما للشىء كجزء من نظام المجتمع . وعلى هذا المنوال يمكن القول : بأن الفلاح زمن الحصاد ، وعامل المنجم حين يعثر على الفحم ظاهراً لا يستجيبان للحقائق المادية المباشرة الموجودة أمامهما فحسب بل إن سلوكهما هو ملاءمة لمجموعة معقدة من الأزمات الاجتماعية ، والمطالب الاقتصادية المختلفة .

وبذلك نكون قد انتقلنا خطوة أبعد من الفكرة السابقة ، فليست التربية عملية تكييف فحسب ، **وإنما عملية تكيف اجتماعى** ، وليست تشكيلا للحياة فقط ، **بل تشكيلا للحياة الاجتماعية التى نحياها** ، ويقررها ويسندها المجتمع . ولما كان للمجتمع مطالب فإن التربية تهيئ الفرد للملاءمة مع هذه المطالب .

وفى تحقيقها لهذه الملاءمة تخلق الإنسان فى صورته الحالية .

ولكن كيف يضع المجتمع أهداف التربية ؟ ويرى الأستاذ « مرسل Mursell » [١] .

« أن مؤسسات المجتمع هى التى تحدد أهداف التربية » .

The Institutions of Society set the goals of Education

وإذا بدت هذه العبارة فى بادئ أمرها غريبة الوقع فى نفوسنا ، مثيرة للدهشة فى صحتها ، فلأننا نستعملها استعمالا محدوداً ضيقاً . فأول ما ترسمه هذه العبارة فى أذهاننا هو صورة للبناء ، والتشييد من أحجار ، ثم تجعلنا نرى فى السجن مؤسسة أو نوعاً لهذا البناء ، وفى المدرسة نوعاً ثانياً ، وفى ملجأ الأطفال والعجزة نوعاً ثالثاً ، وفى المستشفى نوعاً آخر . على أن القليل من التفكير يبين لنا تفاهة وسطحية هذه النظرية . لأن السجن فى جوهره ليس جدراناً ، وأحجاراً ، وإنما هو « نمط معين » من الحياة ، والعمل ، كما أن المدرسة ليست نموذجاً لفن البناء ، وإنما هى مجتمع لرواد العلم من طلبة ، وأساتذة يلتقون فيها ليحققوا هدفاً واحداً مشتركاً بطريقة معينة ، فقد تمر بمستشفى فخم لا تجد فى مظهره ما يوحى إليك بأنه مستشفى على الإطلاق . كما أنك قد تمر ببناء شاهق أنيق فى مظهره حقير فى حقيقة أمره ، وعلى هذا الأساس تكون المؤسسة institution طريقة مشروعة أو عادة معروفة دائماً للعمل والحياة معاً — ولقد ذكر رجال الاجتماع أن الفرق بين المؤسسة وبين العادة هو فرق فى الدرجة فحسب . فالعادة هى أن يلبى المرء نداء مجتمعه كأن يرتدى زياً خاصاً فى حفل معين ، أو أن يبعث ببطاقات الدعوة فى حفلات الأفراح . غير أن الحياة المدرسية وما تتضمنه من سلوك الطالب ، والمدرس ، والحياة المنظمة فى المصنع أو المصلحة ، وكتلة النشاط الإنسانى التى تكون فى مجموعها ما نسميه بالدولة الديمقراطية كل هذا يسمى عادات أيضاً وإن كانت على نطاق أوسع وفى معنى أكثر تعقداً ورسوخاً ، ولكن يجب على الفرد أن يتعلم كيف يلائم نفسه مع العادات فى

---

(١) James L. Mursell : Principles of Education.

معناها الواسع والضيق ، فجل ما يحتاج إليه الفرد فى المثال الأول أو فى العادات بمعناها الضيق . هو كتاب عن آداب اللياقة وبعض التهذيب ، أما فى العادات بمعناها الواسع فحسبه « برنامج تربوى » موضوع بحكمة وصبر ليحقق له هذه الملاءمة . وتتكون المؤسسات الاجتماعية العريقة التأسيس وطرقنا العادية فى أداء الأعمال من المطالب التى تفرضها البيئة البشرية على الإنسان . وبهذا المعنى تكون المؤسسات الاجتماعية أهدافاً للتربية .

ولما كان لهذه الفكرة مغزى عظيم ، وما دمنا سنجعلها محوراً وأساساً لتفكيرنا ، فإننا نود إيضاحها بقدر الإمكان ، ولذلك فلنفرض أن أحد سكان وسط أفريقيا هاجر إلى مصر ، فإن الرغبة ستدفعنا إلى أن نخلق منه مصرياً آخر ، وبعبارة أخرى سنبذل جهدنا لنجعله يتكيف مع المؤسسات الاجتماعية فى مصر ، وهو حين يهبط القاهرة سيجد نفسه غريباً كما لو كان كائناً بدائياً تائهاً فى معمل مملوء بالآلات الضخمة الدقيقة . فلو لم يجد أحداً يعينه ويرشده فسيقف أمامها مذهولا خاشعاً أو يؤذى نفسه ويفسد هذه الآلات بمحاولة استعمالها . ولكنه يستطيع رويداً رويداً أن يندمج فى هذه الحياة الاجتماعية المعقدة . وإذا حالفه الحظ وتمكن من التكيف مع أساليب حياتنا الاجتماعية فلن يلبث أن يشعر بصلة روحية تربطه بهذه البقعة الجديدة — ولن ينى عن اتخاذها وطناً ثانياً — والطفل يشبه ذلك من عدة نواح . ولذلك فإن القول السائد فى « أستراليا » هو أن الطفل أفضل المهاجرين على الإطلاق قول صادق لأنه حين يولد ويترعرع فى بقعة تسنح له الفرصة للتكيف تكيفاً كاملا أكثر من أى مهاجر آخر نزح فى بيئة اجتماعية مختلفة كل الاختلاف عن البيئة الاجتماعية التى استقر فيها ، وعلى أى حال فإن العمل الهائل والتحدى العظيم اللذين يفرضهما المجتمع الجديد على المهاجرين يستلزمان فى جوهرهما التكيف التام مع مؤسسات هذا المجتمع .

ولكن أليس معنى هذا هو أن للتربية أهدافاً لا حصر لها ؟ الحق أن هذا القول على جانب عظيم من الصحة . فللتربية أهداف عديدة لو حاولنا تعدادها

أو حاولنا من جانب آخر وضع قائمة بكل مؤسسات المجتمع فلن ننتهى من ذلك . وعلى كل فإذا أخفق إنسان فى التكيف مع إحدى هذه المؤسسات فإخفاقه يرجع إلى تربيته المخفقة . وتقدير قيمة أو مدى هذا الإخفاق يكون بمقدار قيمة أوأهمية هذه المؤسسة الاجتماعية التى فشل فى التكييف معها ، وقد ضرب أحد أساتذة علم الأخلاق الاجتماعى مثلا لذلك بأحد طلبته ، وقد كانت أعماله فى أيام دراسته على جانب عظيم من الدقة والمهارة ، ولكنه صار فيما بعد مغامراً شريداً فى عصبة سياسية فهذا الإخفاق يعد إخفاقاً تربوياً محزناً ، وهو فى الوقت نفسه إخفاق التكيف مع أهم وأبرز مؤسسة فى النظام الاجتماعى الحاضر ، وأعنى بها مؤسسة الحكم القائم . ولكن أغلبنا ليس مغامراً أو لصاً ولا يرغب أن يصير كذلك حتى ولو أتيحت له الفرصة . غير أنك قلما تجد فينا من هو متكيف تكيفاً تاماً مع بعض المؤسسات الاجتماعية البارزة الكبرى ومع فئة قليلة من المؤسسات الصغرى . ولذلك فإننا نعد مخفقين من الناحية التربوية بغض النظر عن الدرجات العلمية التى تحملها .

والقول بأن بعض المؤسسات أهم من غيرها سيكون مفتاحاً لحل مناقشاتنا التالية حلاً عملياً . لأنه لو أردنا بحث أفضل وأمثل تكييف إنسانى مع جميع المؤسسات الاجتماعية social institutions لتطلب ذلك كتابة مجلد ضخم يبلغ فى ضخامته الموسوعة البريطانية ، ولتطلب معلومات إذا قورنت بها حقائق هذا الفصل لبدت هذه الأخيرة قطرة فى بحر كبير . ولكن ما أود أن أفعله هو اختيار أهم وأبرز هذه المنشآت وإيضاح الصلة بينها وبين التربية كعملية تكييف وبذلك نستطيع فهم الطريقة التى تؤدى دائماً إلى تحليل تربوى صحيح ، واستنباط مدعم على أسس صحيحة — أما المؤسسات التى سنتناولها بالبحث فهى :

١ — الدولة ٢ — العائلة ٣ — النظام الاقتصادى
٤ — دور اللهو ٥ — مؤسسات الصحة الوقائية

وأما الغرض الذى سنبدأ به بحثنا فهو أن الرجل المثقف حسناً هو الذى

يكون متكيفاً تكيفاً حسناً مع جميع هذه المنشآت لأنها فى الحقيقة هى الأهداف التربوية التى نحن بسبيل الحديث عنها .

* * *

والمقول بأن المنشآت الاجتماعية هى أهداف التربية ميزة كبرى ونتيجة خطيرة فى الوقت نفسه . فالميزة هى أنها تضفى على بحثنا طابعاً عمليًّا يجعله أقرب ما يكون إلى الحياة والصدق . لأن الكلام عن التكييف الاجتماعى فى عبارات مبهمة قد يكون ضارًّا كما قد يكون نافعاً ، ولكنه لا يمكننا بحث أى برنامج تربوى إلا ربما نتأكد من نوع التكييف الاجتماعى الذى نقصده، غير أننا حين نتحدث **عن الدولة أو العائلة أو النظام الاقتصادى أو دور اللهو أو مؤسسات الصحة الوقائية** يكون الكلام واضحاً ، وحائلا دون الغموض أو اللبس . أما مجال الخطأ فهو الظن بأن الفرد يتكيف مع كل مؤسسة على حدة . ولكن الشخص الذى يكره اللهو لن يصبح عضواً سعيداً فى عائلته ، والشخص الذى يهمل صحته من المشكوك فيه أن يصير مواطناً فعالا مؤثراً فى النظام الاقتصادى ، كما أن الشخص الذى يقنع بعمل محدود ، على وتيرة واحدة ، أو عمل يعرقل سير نموه الجسمانى لن يكون مستطيعاً التكيف مع مؤسسات الصحة أو اللهو أو السياسة ، ولذلك يجب أن نذكر أن الحياة ليست مقسمة إلى أقسام محدودة منفصلة ، وإنما هى « كل كامل » لا يتجزأ — ويجب ألا نظن أن هذا الرأى يتضمن تدريباً على الأعمال المنزلية مرة ، وعلى ممارسة الحقوق المدنية مرة ثانية ، والإلمام بالأسس الصحية مرة ثالثة وهكذا . . . وإنما هو برنامج « كامل شامل عام » له صلات وثيقة ومنافذ عديدة بكل هذه المنشآت وبكل مشاكلها .

ولكنك قد تأخذ على هذه الفكرة ، فكرة أن أهداف التربية هى مؤسسات المجتمع أنها قد أغضت النظر إغضاء تامًّا عن حياة الفرد الداخلية ، فنتساءل : هل من الممكن أن نعد هذا المشروع التربوى مشروعاً كاملا برغم أنه قد أسقط من حسابه التجارب الفردية الشخصية وأهمل تطورها وأثرها ؟ سؤال عميق ، وليس من اليسير ونحن فى هذه المرحلة البدائية الإجابة عنه إجابة وافية مقنعة .

ولكنا نجد فى الإشارة التى بينا فيها أهمية المجتمع للفرد بصيصاً لجواب مقنع . فقد رأينا سالفاً أن كل الصفات التى تخلق من الإنسان إنساناً صحيحاً ، لا يمكن أن توجد بدون المجتمع ، وعلى هذا يمكننا أن نضيف إلى هذا القول شيئاً بسيطاً فنقول : إنه ليس هناك تجربة فردية إنسانية أو ثقافية شخصية بحتة بدون المجتمع ، فأنت وأنا وجميعنا لا نحيا حياة بعضها اجتماعى وبعضها فردى . وليس هناك فاصل بين تجاربنا الاجتماعية وتجاربنا الفردية ؛ لأن كل تجاربنا من الضرب الاجتماعى ، وهى فى الوقت نفسه تجارب فردية . وكلما تقدمنا فى البحث سيتبين لنا مع زيادة فى الوضوح أن اضطراد الحرية الفردية وقوتها وابتكارها تصل إلى أقصاها بواسطة التربية التى تظهر قيمة علاقة الفرد الاجتماعية ، والتى تؤدى إلى إدراك الصلة القوية بينه وبين بقية أفراد المجتمع .

والمبادئ التربوية التى تعمد إلى تقسيم الحياة الانسانية : إلى ناحية فردية وناحية اجتماعية مبادئ خاطئة ، وكذلك الآراء التربوية التى تعمل على خلق قيمة للفرد فى حد ذاته ، وللفرد بمنأى عن المجتمع . ولقد كانت هذه هى الأهداف التى تهدف إليها التربية . وهذا يقودنا إلى سؤالنا التالى الذى سيلقى ضوءاً ساطعاً على مشكلة الفرد والنواحى الاجتماعية فى الحياة وفى التربية وهو :

(ب) ما هى وسائل الإبانة عن أهداف التربية ؟

إن جل الذين كتبوا عن أسس التربية قد أشاروا — وإن لم يذكروا صراحة — إلى أهداف التربية . ولذلك نجد فى الأدب عبارات كثيرة عن أهداف التربية كلها متعارضة أشد التعارض . ولكن يجدر بنا الإلمام ببعض هذه التعاريف لأننا حين نقارنها بما ذكرناه نستطيع أن نفهم هذه الأهداف فهما تامًّا.

فمن بين العبارات التى ذكرت عن أهداف التربية ، والتى كان لها أعظم الأثر على عقول المربين ورجال التعليم فى الأعوام الماضية ، تلك العبارة المعروفة باسم « المبادئ السبعة الأساسية فى التعليم الثانوى » تلك المبادئ التى تنطبق أحسن ما تنطبق على المدارس الأولية والثانوية الأمريكية ، وقد وضعت

هذه المبادئ وأقرتها لجنة حكومية أطلق عليها اسم « لجنة تنظيم الدراسة الثانوية » . وقد رأت هذه اللجنة أنه يجب أن تهدف المدارس الثانوية إلى النتائج السبع الآتيـــة :

١ — أن تعمل على تقوية جسم التلميذ وتساعده على النمو .

٢ — أن تعمل على إنماء القدرات الأساسية فيه كالقراءة والكتابة والحساب والكلام .

٣ — أن تعمل على تدريبه وجعله عضواً نافعاً فى أسرته .

٤ — أن تساعده من الناحية المهنية فتجعله قادراً على كسب عيشه .

٥ — أن تنمى فيه الشعور بالمسئولية المدنية .

٦ — أن تساعده على استغلال وقت فراغه استغلالا حسناً .

٧ — أن تنمى أخلاق التلميذ تنمية عامة .

والباحث المدقق فى هذه البنود السبعة يجد أنها صياغة جديدة لخلاصة التعبيرات التى ذكرها الفيلسوف « هربارت سبنسر » عن أهداف التربية ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها ، بل إنه على النقيض يزيد من شأنها لأنها تمثل أفضل الأفكار فى حقبة من الزمن فضلا عن أنها إلهام بزغ للعالم أول ما بزغ سنة ١٩١٨ . ولقد أجمع رجال التربية على الإشادة بمحاسنها وذكروا أنها تعطى صورة جميلة لما يجب أن يكون عليه الرجل المثقف ، كما أنها تبين للمدارس ما يجب أن تحققه . وعلى العموم لا يملك المرء إلا أن يوافق على جملتها . ولكن موافقتنا عليها ليست مطلقة من كل قيد أو تحديد .

فمهما يؤخذ على هذه العبارة أنها فردية إلى حد كبير لأنها تقسم وظيفة الحياة الإنسانية إلى وظيفة فردية خاصة وأخرى اجتماعية ، وهذا أمر لم تهدف إليه اللجنة قط ، فقد تناولت العبارة المشكلة الصحيحة مثلا على أنها مشكلة فردية ، بينما تتوقف الصحة العقلية والجسمية للمرء على حسن استغلال وسائل الراحة فى المؤسسات ، وعلى نوع العمل الذى نسير عليه فى المجتمع لترقية وتأسيس هذه الصحة العقلية والجسمانية . كذلك تستلزم الصلاحية المهنية

صفة عظيمة مختلفة عن المهارة والبصيرة التى زود بهما الفرد . فهى تتطلب تكيفاً كاملا مع المؤسسات الاقتصادية ، و « استغلال الفراغ » استغلالا حكيماً أمر مستحسن كذلك وإن كان متعسراً . « فوقت الفراغ » هو كما نعلم الوقت الذى لا يكون فيه الفرد مشغولا بكسب عيشه ، ولكن « استغلاله استغلالاً حكيما » لا يعنى أداء أعمال شخصية بحتة ، وإنما يعنى تكيفاً مرضياً نشطاً مع المنشآت المنزلية والمدنية وضروب اللهو . وبهذا المعنى يجب أن نحسن استغلالها من الناحية التربوية . كما أن العناية بأخلاق الشخص أمر على جانب عظيم من الأهمية . والبرنامج التربوى الذى يفشل فى إبراز أهمية هذه الناحية الأخلاقية لا يمكن اعتباره برنامجاً صالحاً ، ولكن هذا لا يعنى أن الأخلاق جزء منفصل عن الحياة ، أو أن العناية بها أمر فردى لأنها هى النتيجة الطبيعية للتكيف التام مع جميع المؤسسات الاجتماعية ، بيد أن اتجاهنا إلى البحث عن أفضل الصفات المدنية ، وأحسن نموذج لعضو الأسرة إنما يقودنا إلى البحث عن المثالية الاجتماعية . هذا إلى أن اللجنة لم تذكر هذه الصفات على أنها صفات اجتماعية أو تكييف لمؤسسات معينة . وصفوة القول أن « المبادئ السبعة فى التعليم الثانوى » السابق ذكرها تضع الأسس الأولية ، وترسم الرسم التخطيطى للمثالية التربوية الصحيحة ، ومع ذلك فنحن نرى أنها فشلت كمبادئ تبين الأهداف التربوية وضرورة تكييفها مع المنشآت الاجتماعة لأنها لم تصل بنا إلى نتائج محسوسة وملموسة .

ولنتقدم الآن لبحث عبارة أخرى ذات مغزى وفائدة ، وإن كانت تقل عن الأولى روعة وأهمية — أعنى بها تلك العبارة التى ذكرها « إسكندر إنجليس » عندما كان يتحدث عن أهداف التربية وحينما قال : « **إن التربية يجب أن تعمل على تهيئة الفرد لممارسة حقوقه المدنية فى المجتمع ولنواحى النشاط الاقتصادى والمهنى ، ونواحى الهواية الثقافية** » .

على أن هناك اعتراضات خطيرة يمكن أن توجه إلى هذا المبدأ الذى نادى به « إسكندر إنجليس » نذكرها فيما يلى :

أولا : هو يعتبر نواحى النشاط المدنى وحدها نواحى نشاط اجتماعى . كما أنه يجعل من الثقافة والمهنة أموراً فردية متروكة للفرد وحكمته ، وهو فى نفس الوقت لا يضعهما على قدم المساواة فى الأهمية . وهذا عيب خطير .

ثانياً : كما يؤخذ على هذه العبارة أنها تقرن التفكير فى الثقافة بالهواية والمتعة . وهذا خليق بأن يضعها فى مصاف الأشياء التى يقتنيها الفرد أو يتزين بها ، وهذا القول هو أصل التطورات التربوية الخطيرة فى عصرنا الحاضر ، تلك التطورات التى تميل إلى اعتبار الثقافة وسيلة للترفيه والترف أكثر منها وسيلة للحياة.

ثالثاً : زد على ذلك أنه من السخف أن نقسم الحياة الإنسانية إلى حياة تعنى بالحقوق المدنية، وأخرى تعنى بالمهنة، وثالثة بالهوايات كما اقترح « إسكندر إنجليس » وإذا سرنا على منواله وجرينا على نهجه فسنذهب إلى تقسيم الحياة إلى استيقاظ ونوم، وسيزعم أن وظيفة التربية هى إعدادنا لذلك . وقد يبدو هذا القول صواباً ، ولكن الباحث المدقق يرى مدى سخافته وتفكك روابطه ، لأنه يتجاهل طائفة كبيرة من الأمور الحيوية . فماذا نقول عن صلة الفرد بعائلته أو بالدولة أو بالنظام الاقتصادى أو بالصحافة الشعبية أو بالمؤسسات التى تعمل على توفير وسائل الراحة واللهو ؟ أليس للتربية صلة بها جميعاً ؟ أليس من الضرورى أن نعتنى بها ؟ إن الجواب باد للعيان ولا يحتاج إلى بيان . وهنا نذكر مرة أخرى أن التقاسيم الفرعية المهمة فى الحياة الإنسانية هى تلك التى لها صلة بالتكييف مع المؤسسات الاجتماعية ، والتى تبين العلاقة بين هذه المؤسسات جميعاً .

ولكن دعنا الآن ننقب عن بعض العبارات التى ذكرها القدامى من رجال التربية عند بحثهم عن أهداف التربية . فسنجد أن تلك المبادئ التى نادوا بها أبسط وأعم من ذلك المبدأ الذى سبق أن ذكرناه . بيد أن رجوعنا إلى هذه العبارات لا يمكن أن نعتبره مضيعة للوقت ما دمنا نجد الكثيرين من كبار رجال التربية يرددونها حتى اليوم . كما أنها مازالت تسيطر على التفكير التربوى والتجارب التربوية .

ولنبدأ بذلك المذهب الشهير أو الهدف المعروف الذى ينادى بأن « التربية يجب أن تعمل على تنمية قوى الفرد وقدراته العقلية تنمية متناسقة » . وقد يهتز القارئ بما تتضمنه هذه العبارة من معان ، وأهداف ، والحق أنها أخرجت إلى العالم بعض نظم التعليم التى تفيض حماسة ، ونشاطاً ، ولكنا حين نفحصها فحصاً دقيقاً ، نجدها ناقصة نقصاً محزناً لأنه ما دمنا نحصر تفكيرنا فى الفرد ، وهذا ما تدعونا إليه هذه العبارة فلن تكون لدينا فكرة واضحة عما يقصد باصطلاح « قدرات متوازنة » ، ولن نستطيع أن نميزها ، ونفصلها عن تلك التى ليست بمتوازنة ، ولعل المقصود منها ألا يكون الإنسان نامياً فى ناحية واحدة فقط ، كأن يكون مشغوفاً متطرفاً بالعلم أو الأدب أو الفن أو الأمور المهنية . ولكن ما مقدار الشغف الواجب أن يكون لنا فى كل ناحية ؟ وما هو معيار الحكم على أن مالدى إنسان لايزيد على القدر المطلوب ؟ هذه أسئلة ليس من اليسير الإجابة عنها . ولذلك كان من المحتمل أن تبدو الشخصية المتوازنة (فى داخلها وخارجها) أيام الإغريق نشازاً فى حياتنا الحاضرة ، ينتابها صراع داخلى من جراء ذلك . بل إن الفلاح البلغارى المتصف بالتوازن فى القدرات ليصبح فريسة سلسلة للمصائب ، والمضايقات إذا قطن الجانب الشرقى من نيويورك . ولذلك فإن التفسير الوحيد الذى نستخلصه ، ويمكننا أن نطبقه فى أغلب الحالات هو أن نقول إن الشخصية المرنة ، هى تلك الشخصية المتكيفة تكيفاً تاماً مع فئة كبيرة من الحالات الاجتماعات وبمطالبها ومؤسساتها وهذا يرجعنا إلى ماسبق أن أدلينا به فى بادئ الأمر من **أن أهداف التربية هى تحقيق عملية ملاءمة الفرد مع المؤسسات الاجتماعية .**

والرأى الثانى الذى نود مناقشته هو ذلك الرأى الذى ينادى بأن التربية « توزيع للمعرفة الحقة على أفراد المجتمع » . ولكن ماذا نقول عن أنواع المهارات وماذا نقول عند النقد وتذوق الأشياء ؟ وماذا نقول عن إدراك الواجبات ، والحقوق المدنية ؟ ألا يقودنا هذا إلى الظن بأن التربية صلة بالمرء الذى يعلم وبالمعلومات التى تلقن ، وهنا يجب أن نذكر فى إيمان ويقين أنه ليس لجميع

أنواع المعرفة قيمة واحدة متساوية ، ذلك الأمر الذى يترتب عليه أن يصير اختيار أحسن ما يجب أن يعرف مسئولية تربوية خطيرة . وآخر ما يوجه من النقد وأهمه هو أن المعرفة من أجل المعرفة ليس لها قيمة : لأنه يجب تحويل هذه المعرفة إلى قوة فعالة وإلا تكون غير جديرة بأن يلم بها الفرد . وهكذا تنتهى إلى رفض هذا الهدف التربوى « هدف المعرفة » لأنه مضلل إلى أبعد الحدود .

وهناك رأى آخر ذكر فى صيغ كثيرة مختلفة ، وإن كان يدور حول هدف واحد ، ونعنى به هدف كسب العيش ، والفكرة الواضحة البسيطة التى ينادى بها أنصار هذا المذهب هى أن أهم وظيفة للتربية إنما هى تمكين الفرد من كسب عيشه ، وهذا بطبيعة الحال يجعل الهدف من التربية واضحاً محدوداً ، لأن كسب العيش جزء من الحياة ، وليس كل الحياة . فلا نستطيع أن نعد شخصاً متكيفاً صحيحاً من الناحية البيولوجية (الحيوية) أو من الناحية الاجتماعية إذا كان على وشك أن يموت جوعاً لأنه يعوزه العثور على الطعام والملبس والمأوى . كما لا نستطيع أيضاً أن نعده متكيفاً تكيفاً تاماً إذا كان كاملا فى شتى نواحى الحياة الأخرى . ولا يستطيع أن يفعل شيئاً غير الحصول على كسب عيشه .

وأخيراً هناك الهدف التربوى الذى يحمل أهداف التربية فى كلمة « التهذيب » فالفكرة الأساسية لدى أنصار هذا الرأى هى أن وظيفة التربية إنما هى تدريب العقل وإنماء القوى الإنسانية عامة من ملكات وقدرات . ويكمن وراء ذلك نظرية مشهورة هى نظرية التدريب الشكلى ، وقد سبق الحديث عنها عند الكلام على المنهج . وكل ما يمكن أن نذكره هنا هو أن أنصار هذا المذهب قد ذكروا الكثير من المعلومات التى أخفق كثير من رجال الفكر الحديث فى إثبات صحتها . فالواقع أن العقل المنظم المرتب ترتيباً جيداً يعتمد ويعنى بالتكيف الاجتماعى الكامل ، غير أن هذا الهدف التهذيبى فى صيغته الأولى التى نادى بها أنصاره لا يتضمن هذه الفكرة مطلقاً .

والآن وبعد هذا العرض يجدر بنا أن نتساءل : ما هو نوع التكيف

الاجتماعى المقصود ؟ عندما نقول : إن هدف التربية هو تكييف الإنسان مع المؤسسات الاجتماعية نخشى أن يفهم هذا الهدف فهماً خاطئاً كما وقع فى ذلك بعض قادة التربية، فأدى هذا إلى إنتاج جيل يتصف بالطاعة والامتثال . تلك الصفات التى ترى فيها التربية الديمقراطية حداً قاسياً مؤلماً لثقافة الطبقات الفقيرة ، وقصرها على ما يناسب مراكزهم الاجتماعية الحقيرة ، وعلى القدر الذى لا يبعث فى نفوسهم أى أمل فى إيجاد وسائل شريفة للتمتع بحياة أفضل وعيشة أرغد ، ويتجلى هـذا الاتجاه فى قول أحد المفتشين لناظر إحدى المدارس المهنية وقد أدخل فى منهاج الدراسة بمدرسته مادتى التاريخ ، واللغة الإنجليزية : إن هذه المواد إن لم تكن عديمة الجدوى فهى ضارة ، وإن وظيفة المدرسة الأساسية إنما هى تدريب التلاميذ على العمل مدة تسع ساعات أمام آلة من الآلات ليكتسبوا « دولاراً ونصفاً » . وبالإضافة إلى هذا ما زالت بعض المدارس الحديثة والكليات فى أمريكا تؤثر تأثيراً قوياً فى نفوس طلابها — سواء أكان ذلك عن عمد أم لم يكن — باعتناق تلك الفكرة الجامدة .

وإذا أمكننا استعادة التحليل السابق عن خصائص التكيف الإنسانى فإننا — ولا ريب — نستطيع التكهن بما سيكون عليه نقدنا : فالتكيف مع المؤسسات الاجتماعية بمعنى الامتثال عبارة عن تكيف جامد بعيد عن التكيف البشرى الذى مكن الإنسانية من التقدم ، وأتاح للإنسان أن يصير سيد المخلوقات وهذا ليس تكيفاً جامداً ، بل هو يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم ، وهذا هو ما يجب أن نسعى إليه جاهدين ليتم تكيف الفرد تكيفاً صحيحاً مع المؤسسات الاجتماعية .

ولكن كيف نعبر عن هذا فى عبارة واضحة محسوسة ؟

نستطيع الإجابة عن ذلك لو استعرضنا بضعة أمثلة لنرجع إلى ذلك التلميذ الذى سيظل تسع ساعات أمام الآلة ، ولننظر إليه بعين صادقة فسنرى أنه لو درب على هذا العمل فحسب فإن تكيفه مع المصنع كمؤسسة اجتماعية يكون تكيفاً ضيقاً جامداً بصرف النظر عن مهاراته ، لأنه لا يستطيع إلا أداء هذا

الضرب من العمل الروتينى ، ولكن هب أنه يؤدى عمله بعد أن ألم إلماماً تامًّا بالعلم الصناعى فإن شغفه الذى سيثيره هذا العلم فى نفسه ، ونزعته الانتقادية قد يفضيان به إلى الاهتداء إلى وسائل أخرى أسرع وأسهل وأفضل فى أداء عمله . وليس هذا بمستغرب ، فطالما حدث كثيراً ولو كان لهذا التلميذ إلمام مستمر بالعلوم الاجتماعية ، أو بعبارة أخرى لو كان ذا بصيرة نافذة لإدراك طبيعة حياة الجماعة وكيفية الحياة فيها فقد يصبح عاملا نشطاً فعالا فى رقى المصنع ، ولذلك فإنك ستجد فى عمله مرونة وابتكاراً بدلا من الجمود والطاعة العمياء ، فمتى رغب الطفل عن الامتثال وتلك الطاعة العمياء فإنه يصبح عاملا فعالا .

ولنضرب مثلا آخر من عالم التدريس : فى القرن التاسع عشر ظهر نظام مدرسى عرف باسم نظام العرفاء ، وكان هذا النظام يمكن المدرس الواحد من تعليم عدد كبير من التلاميذ يصل أحياناً إلى المئات ، وذلك بأقل النفقات ، وسبيل ذلك هو أن يشرح المدرس الدرس لجماعة من الطلبة الكبار النابهين فى دراستهم ثم يعهد إلى كل منهم بالتدريس إلى فئة من التلاميذ الصغار ، غير أن هذا النظام الذى كان يتبعه هؤلاء كان أميل ما يكون إلى العسكرية الصارمة ، ولذلك كان يجرى كل شىء بنظام وترتيب . ولكن تكيف كل واحد من هؤلاء العرفاء مع الفئة التى يشرف عليها ومع المدرسة بوجه عام كان تكيفاً جامداً ، وكان نجاح هذه المؤسسة ونشاطها يتوقفان على هذا التكيف الجامد وذلك النظام الصارم . ولذلك كان محروماً على العرفاء وضع أسئلة بسيطة سهلة أو القيام بإجراء تجارب عملية أو اقتراح محسنات مجدية . وما زلنا نلمح ظلال هذه الفلسفة منعكسة على التربية الحاضرة كما نجدها فى إلحاح المسئولين والمهيمنين على المدرسين باتباع طريقة ثابتة معينة فى التدريس لا يحيدون عنها . وليس لهؤلاء المدرسين أن يناقشوا السبب وعليهم دائماً أن يطيعوا طاعة عمياء .

والآن فلنقارن هذا بالتكيف المطلوب فى مدرسة حديثة من الطراز الأول حيث يهتدى المدرسون بفلسفة التربية وبحقائق علم النفس ، ودراسة الموضوع المراد تلقينه دراسة شافية ، ويسترشدون بكل ذلك إلى أفضل طرق التدريس

واختيار المناهج الملائمة للطلاب ، كما أن إدراك المبادئ التربوية وفهم النظم المدرسية يمكّن هؤلاء المدرسين من وضع اقتراحات مجدية فى تسيير دفة المؤسسة المدرسية ، ويمكنهم من خدمة الأوامر الإدارية فى المدرسة خدمة حكيمة بعيدة عن ذلك الامتثال الأعمى البغيض . وهكذا نرى أن أمثال هؤلاء المدرسين يتكيفون مع ما تتطلبه مهنتهم تكيفاً نامياً مستمراً . ولهذا فإن عقيدتنا عن المدرس المثالى تتضمن فكرة عن التكيف المرن المبتدع التقدمى لا التكيف الجامد المحدود .

ويمكننا أن نمضى فى سرد أمثلة عديدة ، ولكن لا داعى إلى ذلك مادام فى متناول القارئ أن يعثر على الكثير من الأمثلة بمفرده . وليس المواطن الصالح الذى يمتثل الأوامر القانونية امتثالا سلبياً ، بل هو ذلك الذى يشترك فى الحياة المدنية سواء أكانت محلية أم قومية مبدياً اقتراحاته سواء أكانت تلك الاقتراحات مما يؤيده أو يعارضه . والأمم الصالحة هى التى تهتدى إلى مطالب أبنائها ، وتعمل على تحقيقها لا تلك التى تجرى وراء العادة ، والتقاليد .

وقيمة التربية تكمن فى خلق أفراد يعالجون المؤسسات الاجتماعية بالابتداع والابتكار ، رائدهم فى ذلك الذكاء والعزم على التعليم المثمر المستمر ، وهذه صفات يجب أن تغرسها المدرسة فى نفوس التلاميذ ، كما يجب أن تكون كل أعمالها موجهة إلى تحقيق هذه الأهداف ؛ لأن التربية يجب ألا تمد الفرد بطريقة العمل الروتينى بل بطريقة العمل الابتكارى .

(ح) لماذا نحتاج إلى تكيف اجتماعى يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم ؟

لعل القارئ الآن يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بأن تكيف الفرد مع المجتمع الذى يتصف بالمرونة والابتكار هو فى حقيقة الأمر أفضل من ذلك التكيف الجامد الذى لا يخضع للتغيير . ولكن هب أن أحد الهنود الأذكياء لا يؤمن بهذا القول ، ذكر لك أن رقى الإنسانية يتوقف على وجود نظام الطبقات الصارم الذى يفرض على كل فرد أن يعيش حياة محدودة تلائم بيئته ، كما يقرر

منهاج حياته، ومستقبله منذ ولادته. أو هب أنك تناقش بعض الأمريكيين الذين يعتقدون بأفضلية نظام الطبقات ، وينادون بضرورة تربية السواد الأعظم من الناس تربية تخلق منهم طبقة تشبه طبقة العبيد تخضع لطبقة الأشراف . هب أن هذه الحجج والآراء أدليت إليك فكيف تدافع عن معتقداتك ؟ والإجابة تتضمن إشارة إلى نقطتين مهمتين جديرتين بالذكر :

أولا : إن التكيف المرن الذى ينحو نحو الابتكار والتقدم أفضل بكثير من أى تكيف جامد ؛ لأنه يكفل للجماعة تحقيق هدفها الرئيسى فى يسر وسهولة، وأعنى به تحقيق خدمة أفرادها ، وتقويتهم . وكما أن الزمرة من الذئاب تستطيع مجتمعة أن تدفع عن نفسها غائلة طغيان الكلاب ، ولا يمكنها ذلك إذا انفرط عقدها . فكذلك المجتمع البشرى باجتماعه مكن الفرد الضعيف من أن يصير الغالب المسيطر فى الحياة . والملاحظ أنه كلما ازدادت وكبرت الجماعات كانت الميزة البيولوجية التى تجنيها أعظم ، وأكبر . وتتحقق الوظيفة السامية للمجتمع عامة ، وللجماعات المختلفة خاصة حين يكفل للإنسان نمط معين من الحياة ..

ولكن هب أننا نبحث حالة تلك الجماعة البشرية التى تعمل فى مصنع من المصانع من عامل إلى رئيس ، فإننا نرى أنه لو ترك كل فرد يباشر عمله بلا تأثير فى الأشياء المرتبطة به لحصلنا على نوع معين من المهارة ، ولكن لو شجعنا كل عامل على التفكير ، والنقد ، والابتكار فسنجنى بلا شك من وراء ذلك فائدة جليلة ؛ لأن هذا وإن كان يجعل إدارة المؤسسة أمراً صعباً ؛ إلا أنه يجعل نتائجها أجدى وأنفع ، لأن العمل كله بوجه عام يستفيد فائدة عظمى من مساهمة الجميع فى رقيه ، ودأبهم على تقدمه ، وبذلك لا نعتبر الفرد (يداً عاملة أو آلة صماء) وإنما نعده إنساناً حقيقياً ، ومصدراً للقدرات التى تعمل على رقى المجتمع .

هذه هى أعظم محاسن التكيف المتصف بالمرونة ، والابتكار والذى يمكن الجماعة من استغلال قوى أفرادها استغلالا كاملا نافعاً ، ولكن نظام

الطبقات الجامد الذى يحصر الفرد فى محيط لا يتعداه إنما هو نظام بسيط تسهل فيه الحياة ، ولعل هذا هو السبب فى تفضيل الكثيرين له ، إلا أنه كنظام لا يتفق ومبادئ الديمقراطية التى تفسح لكل فرد صدرها فى أن يرتقى بقدراته ، ومواهبه حتى يصل إلى أرقى المناصب فى الدولة ، فعصا « المارشالية » فى يد كل جندى كما أن « البيت الأبيض » يمكن أن يصل إليه المواطن الأمريكى النابه ، ولعل أحسن مثال عرفه العالم عن المجتمع الذى يستفيد من المساهمة الفعالة لكل فرد تظلله سماؤه . هو مجتمع العلماء الباحثين ؛ فكل عالم يبحث ويعمل حرًّا مبتكراً مستعيناً بالاكتشافات الماضية ، والحاضرة لجماعته ، كما أن النتائج التى يصل إليها سرعان ما تصبح فى متناول يد البحاثة من زملائه .

ثانياً : والاعتراض الثانى الذى يذكر ضد الجمود الاجتماعى هو :

أن الفرد تسنح له أطيب الفرص للحياة الكاملة فى المجتمع الذى يتيح له أقصى حرية لاكتشاف أساليب جديدة فى العمل والحياة والتفكير ، والشعور ، ولذلك فإن هذا يدفع الفرد إلى العمل على تغيير وتحسين المؤسسات الاجتماعية الموجودة ، وإذن فالجمود الاجتماعى معناه الحد من حرية الفرد ، وحين نذكر أن الفلاح أو الصانع يحتاج إلى تربية أولية فقط ، وأن أى تربية عميقة بالنسبة له لا غناء فيها ، ولا طائل تحتها فإننا بذلك نفترض فرضاً خطيراً يؤدى بهذا الفرد إلى أن يظل دائماً فى حرفته كفلاح أو كعامل ، وعلى هذا يصبح كونه فرداً ينتمى إلى طبقة معينة أهم بكثير من كونه بشراً ينتمى إلى الإنسانية ، ولكن يجب عليه أن يندمج خارج محيط عمله بشغف فى الحياة العائلية أو الأمور الصحية أو الشئون الدينية والمدنية التى هى على صلات وثيقة بالحياة الإنسانية كما يجب أن يكون لعنصر الذكاء ، والبصيرة علاقة قوية بالعمل الذى يقوم به الإنسان حتى لا يصير مجرد « روتين » يومى يحد من الأفق العقلى لديه ، وهذا هو المذهب الذى أوجد إحدى الحركات التربوية العظيمة وأعنى بها النظام المتبع « بالدانيمارك» المعروف باسم « المدرسة العالية للقرويين » The Rural Folk High School System of Denmark وهى مؤسسة تمد الفلاحين ، والمشتغلين

بالفلاحة ، والزراعة بثقافة واسعة تبدو لدى أنصار مبدأ نظام الطبقات فى غاية السقم ، وإن المتتبعين لهذه الحركة فى « الدانيمارك » وخارجها يجمعون على أن سر الانتعاش الزراعى لهذا الإقليم يكمن فى هذه الحركة ، ويرجع إليها . ولقد ذكر فلاح كهل بهذه المناسبة أن المدرسة العالية للقرويين تساعد الفلاح على أن يشعر بأنه إنسان حقيقى .

وجوهر هذين المبدأين يتلخص فى أنه يجعلنا نعتقد أن المجتمع ذا التأثير الفعال هو الذى يكون فيه انسجام متبادل بين الفرد ، والجماعة ، والذى يساهم فيه كل فرد بأقصى قواه من أجل الصالح العام الذى هو بدوره السند الأول للفرد ، ومنبع قواه . ويجدر بنا أن نقول : « إن فكرة وجود علاقة قوية حرة مبتكرة بين الفرد ، والمجتمع الذى يعيش فيه هى ما نسميه بالعقيدة الديمقراطية ، وقد عبر الزعيم الكبير « بركليس » عن هذه الفكرة تعبيراً بسيطاً منذ ألفى عام مضت ، فقال : « نستطيع نحن سكان أثينا أن نقدر ، ونتذوق إن عجزنا عن أن نبتكر ونبتدع ، ونحن لا نرى فى الأمور النظرية عقبة كأداء فى سبيل العمل بل على النقيض من ذلك نراها أمراً ضرورياً تمهيدياً يسبق كل عمل صائب .. وأستطيع أن أذكر بإيجاز أننا فى مجموعة كمدينة عبارة عن أثر من آثار المدرسة الإغريقية ، ولكنى أشك كثيراً فى أن العالم قد أنجب رجلا كالأثينى يشعر وهو بمفرده أنه كفء لمعالجة ما يجابهه من المصاعب بما وهب من مزايا وشيم » .

(د) كيف يمدنا المجتمع بوسائل التكيف مع المؤسسات الاجتماعية ؟

من العبث أن نحاول الإبانة عن أهمية التكيف مع مؤسسات المجتمع بالإشارة البسيطة إلى ضرورة وجودها ، ولما كان الإنسان الفج undeveloped لا يستطيع الاحتفاظ بعلاقة طيبة ابتكارية نزاعة إلى الحرية مع مجتمعه ، فلذلك وجبت تربيته ووجب أن تكفل له بعض الوسائل العقلية التى تحقق ذلك . والمجتمع هو الذى يمد الفرد بالوسائل يستخدمها فى التكيف التام مع مؤسسات الجماعة . وقد استطاع المجتمع تحقيق ذلك بتوفير الوسائل الذهنية

التى تعمل التربية على جعلها فى متناول الأفراد ، وقد ذكر الأستاذ « روس فنى » Ross Finney قائمة لهذه الوسائل ، نلخصها فيما يلى[١] :

أولاً : وسائل التخاطب (الاتصال بالغير) وتشمل التعابير الوجهية ، والإشارات واللغة ، والكتابة والفنون الجميلة التى هى وسيلة للتعبير عن المشاهد والعواطف ، وكل الحيل الآلية ، والطرق الاجتماعية للتخاطب على مسافات ، إلى جانب تلك المؤسسات التى تحمل تراث ثقافتنا إلى الأجيال القادمة .

ثانياً : وسائل الصناعة ، ونعنى بها « القدرة على أداء كل ضروب الإنتاج الاقتصادى ، ولا تقتصر على الحرف اليدوية والذهنية ، بل تشمل — أيضاً — تطبيق الفنون والعلوم ، كما تشمل ضروب الصناعة المختلفة ، وبالإيجاز تشمل المهنة فى أعم معانيها .

ثالثاً : وسائل التسلية الصحيحة . كالألعاب الرياضية سواء أكانت فى الملاعب أم داخل جدران البيت ، أم فى الحفلات الاجتماعية وكل ضروب اللهو التى يمكن أن يسمع عنها .

رابعاً : العلوم .

خامساً : الفنون الجميلة .

سادساً : العقائد التى يعتنقها السواد الأعظم من الناس ، وتسيطر على حياتهم وإن لم تكن قائمة على أسس منطقية معقولة . وهذه العقائد لها تأثير عظيم فى رقى الإنسانية . ويمكن الاستدلال على ذلك بالفكرة القديمة التى تنادى بأن الأرض مركز الكون ، فقد كان لهذه الفكرة أثر خطير فى قلب نظام الحياة فى العصور الوسطى ، ومؤسساتها الاجتماعية ، إذ كانت أشبه ما تكون ببخار خنى يبدد سحب العقائد المظلمة ، ولقد كانت المعارضة ضد « كوبرنكس ، وجاليليو » ناتجة عن استنتاج خاطئ بأن هذه النظرية الفلكية تهدد نظام المجتمع .

سابعاً : المثل العليا والحاجات السائدة ؛ فمثلا نجد فى أمريكا الآن اتجاهاً

---

(١) Ross Finney : A Sociological Philosophy of Ed.

فى التفكير يرسم لنا صورة اجتماعية مختلفة عن المجتمع الأوربى محورها الرغبات الهامة التى غرسها الأمريكان فى أبناء الجيل الحاضر ، ورغبة كل مدنى أمريكى فى اقتناء سيارة . فهنا نجد عاملا عقليًّا سواء أكان رغبة أم فكرة يسيطر على أسلوب الحياة الاجتماعية .

ثامناً : مجموع ضخمة من المصطلحات المبهمة الغامضة المكونة من التقاليد المرعية أو العادات المتبعة مثل : الاستئذان قبل الدخول ، أو نفح الحمالين أو خدم النزل ببعض النقود . . إلخ . وكل ما اصطلحنا عليه من أنه يليق أو لا يليق بالرجل المهذب أن يفعله أو يبتعد عنه .

هذه الوسائل التى ذكرها « فنى Finney » والتى تساعدنا فى تكوين المؤسسات الاجتماعية . وهى وسائل تربوية أكثر منها أهدافاً للتربية ، وحيث تكثر هذه الوسائل ، وتكون فى متناول اليد فإن المؤسسات تتعدد وتصبح وفيرة ، ويكون تكيف الفرد تكيفاً فعالا مبتكراً . وحيث يقل ويتضاءل عددها ينحط المستوى الاجتماعى . وخير مثال لذلك هو أن نستعرض حالة العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية حين نعى « جريجورى » Gregory of Tours فى عبارات تعوزها بلاغة الأسلوب وتبرز تدهور العلم ، إذ انعدمت موارد التفاهم ، وانحطت أسس الصناعة ، والتسلية ، وتلاشت الفنون الجميلة ، وأضحت العقائد مملوءة بالخرافات والأفكار العقيمة ، وأصبحت المطالب السائدة حقيرة ، وسيطرت على حياة الجماعة الاصطلاحات ، والعادات التى هى أشبه ما تكون بالأساليب البدائية . وماذا كانت النتيجة ؟ .

يمكن أن نعبر عنها فى إيجاز بأنها « أنيميا اجتماعية » Social anaemia فقد فقدت الحياة الاجتماعية عناصر القوة ، وساد المنزل قنوع أو على الأقل استسلام إلى عيشة تعسة فى كوخ حقير من اللبن ، والقش ، وأصبحت الدولة خاملة عاطلة وكانت الكنيسة حينئذ تبدو وقد لحقها الضعف كما انتابت الحياة الصناعية والمؤسسات الزراعية الفقيرة الوهن ، والتأخير ، وبدت كما لو كانت سائرة إلى طريق الانحلال ، والزوال . وأجدبت الحياة العقلية مما أدى إلى

انحلال عام فى المجتمع ، والثقافة .

إن العلاقة بين الناحية العقلية والاجتماعية وثيقة ، فقد وضح « باجلى » ذلك توضيحاً لا يأتيه الشك فى كتابه Determinism ie Education « الحتمية فى التربية » وذلك أنه كلما ازدهرت الموارد العقلية وكثرت ، وأصبحت فى متناول الجميع ؛ كان نشاط المؤسسات الاجتماعية أوفر ، وأكثر . وحياة الفرد أغنى وأكمل . ومن هنا كانت الصلة بين التربية والمجتمع وثيقة للغاية ،لأن هدف المؤسسات التربوية هو زيادة وتوزيع هذا المصدر العقلى ، فهى أشبه ببيت المال فى حراسة نظم المجتمع . وأن المصارف ليست مستودعاً للسبائك ، ولكنها وسيلة لتدعيم الحياة الصناعية بالثقة فى الأوساط التجارية ، وكذلك تؤدى المدارس رسالتها إذا لم تهدف إلى مجرد تلقين المعرفة وحفظ العلم لأن هيئة التدريس بها تعمل جاهدة بالإضافة إلى معرفة التراث العقلى على تعويد التلاميذ حب البحث ، والتنقيب . وتسهر على جعل هذه المواد ميسورة بما تقدمه من التفسيرات المختلفة ، والتبسيطات المتنوعة .

ولعل أهمية الرقى العقلى للمجتمع يتضح بجلاء إذا استعرضنا هذين المثالين الحديثين ! ! — فمنذ أعوام قليلة مضت ظهر فى باريس بعد الحرب العظمى رجل فى هيئة « السنغاليين » ، وتغلب بعد حياة مضطربة على عاصفة من الحوادث العنيفة التى لا يكاد يصدقها عقل ، فقد قهر بطل رفع الأثقال الفرنسى ، واستطاع أن يكتسب بسمعته من المال ما يحقق له العيش الرغد ؛ ولكنه كان ينفق عن سعة ولذلك مات فقيراً . وقد أشارت الصحف الفرنسية إليه على أنه إنسان مسكين برغم قوته ، ونعتته بأنه متوحش استغل استغلالا سيئاً فى ذلك العالم الذى لم يستطع أن يفهمه . فهنا تجد مثالا لشخص قذف به فى مجتمع مملوء بالغش والخداع من غير أن يتسلح بالأفكار التى تكفل له التكيف الموفق مع المؤسسات الاجتماعية المعقدة المختلفة فما حدث إنما هو عبارة عن انفجار مروع ثم انتهاء وخمول ؛ فقد مات ذلك الرجل ممزقاً أشد تمزيق بوساطة آلة أخفق فى فهم كنه تركيبها ، وإدارتها ، وهنا يكمن شر إخفاقه لأنه

كانت تنقصه القوة العقلية التى يتغلب بها على المشاكل المعقدة فى مختلف المؤسسات الاجتماعية . وهكذا فرض عليه المجتمع التكيف من غير أن يمده بالوسائل التى تجعل هذا التكيف أمراً موفقاً .

وثمة مثل آخر على النقيض من ذلك تجده فى الرحالة المشهور « ستيفان سن » ، فهذا الرجل قد تعلم أن يجارى ، ويساير البيئة القطبية ، وما يحتمل أن يقابله فيها . ولقد نجح نجاحاً عظيماً ، فقد توغل إلى مسافات عظيمة فوق المحيط المتجمد برغم قلة ما يحمله من طعام، فقد كان يعيش كما يعيش سكان هذه المنطقة . وفى هذا المثل يمكننا أن نلمس مزايا الرجل المتمدين الذى صبغه المجتمع بصبغة عقلية تساعده على التغلب على المشاكل، فقد فاق « ستيفان سن » فى ذلك سكان الجهات القطبية ، فهو قد تمكن بما وهب من مرونة وابتداع من أن يلائم نفسه مع ذلك المجتمع بنجاح . وقد قص علينا ذلك فى أسلوب قصصى شائق يبين لنا كيف تغلب على مشاكل الحصول على الطعام ومشاكل حفظ الماء وبناء البيرت من الثاج ، وهذا أمر لا يستطيعه أى إنسان أبيض ، وكل ما كتبه فى كتابه « الأراضى القطبية المحبوبة » يشهد بفضل التراث العقلى على المدنية فـ « استيفانسن » فى المناطق القطبية هو المثل الحى للفكرة التى نود أن نبرزها فى هذه الصفحات عن الرجل الذى تنشده التربية الصادقة .

والذى نهدف إليه من وراء تلك الأمثلة السابقة إنما هو **إبراز أهمية النواة العقلية فى الحياة الاجتماعية ، وكلما زاد قدر هذه النواة لدى فرد من الأفراد تمكن من المساهمة الصحيحة فى الحياة الاجتماعية وملاءمة نفسه لمؤسساتها والعكس صحيح** . فجدير بنا إذن أن نبحث عن أمثل الطرق لاستغلال هذه القدرات العقلية بشكل يسهل ملاءمة الفرد ملاءمة اجتماعية .

ثانياً : العلاقة بين المدرسة والمجتمع

(ا) روح الجماعة

يرث الإنسان فيما يرثه عن الجنس « الغريزة الاجتماعية » . فالإنسان حيوان اجتماعى بطبيعته ، وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى من يعتزلون المجتمع « المعتزلة Hermits » على أنهم أشخاص غير عاديين ، والسجن الانفرادى بالنسبة للعاديين من الأفراد ألعن أنواع السجون، وربما كانت « الغريزة الاجتماعية » هى البقية الباقية من تلك النزعة التى طبعت بها الطبيعة البشرية عندما كان يتكاتف الإنسان مع أخيه الإنسان من أجل الدفاع عن النفس ، ومن أجل الصيد . ومهما كان من أمر أصل هذه الغريزة الاجتماعية فمما لاشك فيه أنها عظيمة الأهمية من الناحية التربوية ولا سيما فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالتعليم ، والتعلم .

وشعور الوحدة الذى يظهر على الطفل إذا عزل عن زملائه قد يكون شديد الخطورة ، ومثله فى ذلك مثل الخوف . ولذلك وجب علينا ألا نلجأ إليه إلا فى الحالات النادرة ، كما يجب علينا أيضاً أن نستخدمه بحذر . وقد لاحظت الدكتورة « منتسورى » قوته ، ولذلك لم تلجأ إلى استخدامه إلا فى حالات يبرز فيها سلوك الطفل الشاذ، فكانت تعزله عن الجماعة . والعزلة ضرب من ضروب العقاب يستخدمه المدرسون أحياناً ولكن له خطران واضحان .

أولا : قد لا تكون هذه العزلة تامة ، ولذلك قد توحى للمذنب بفكرة الصدارة، فيظن نفسه مركزاً لجذب انتباه الغير He is the line light ولذلك جدير بالمدرس أن يبعد المذنب من الأطفال إلى مؤخرة الفصل بدلا من المقدمة .

ثانياً : قد يكون عزل الفرد عن الجماعة عزلا تامًّا ، وفى هذه الحالة سوف يقاسى المذنب الشىء الكثير من الآلام . وهذا هو السبب الذى من أجله ينصح

المربون بالتخفيف عن عقاب العزلة بقدر الإمكان .

والشعور بالوحدة ، مثله كمثل الشعور بالخوف ، أو بالتقزز له أثر كابت على نشاط الطفل العقلى ، فقد يخلق منه شخصاً منطوياً على نفسه ، وقد تؤدى هذه الوحدة إلى أن يصبح فرداً خاملا عديم الاكتراث بالغير . فالطفل المحب للعزلة المنطوى على نفسه طفل شاذ، ومن أهم وظائف المدرس مساعدة الأطفال على النمو الطبيعى بحيث لا يفقدون نشوة الاجتماع بزملائهم . وهذا هو ما نرمى إليه فى الصفحات التالية « فنمو الروح الاجتماعية » ، وتشجيعها هو هدفنا الذى نود تحقيقه داخل جدران المدرسة . وعلينا قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الموضوع أن نسهله بالحقيقة الآتية وهى أن النمو الاجتماعى لا يتعارض بأى حال من الأحوال مع نمو الذاتية ، فالذاتية لا تتحقق إلا فى جو اجتماعى . والذات لا تنتعش ولا تترعرع إلا إذا تمكنت من معرفة كيف تلائم نفسها مع زملائها ، وكيف تشعر بالسرور فى صحبتهم ، وبالسعادة عندما تتفانى فى خدمة المجتمع . ومما لا شك فيه أن هناك اختلافاً عظيماً بين الأفراد فى هذه الناحية الاجتماعية . ولكن العنصر الاجتماعى عنصر أساسى فى خلق أى إنسان يتصف بالنواحى الإنسانية .

وقد سبق أن أبرزنا اختلاف الآراء فى أهمية الفرد وأهمية الجماعة كما سبق أن أبرزنا أن الجماعة هى السر فى وجود الفرد وفى تكوينه الروحى ، وأن الفرد بدون جماعة وهم أو خيال . وفى الوقت نفسه نعترف بأن الكثير من مميزات الأفراد هو السر فى تقدم الإنسان ورقى الجماعة ، **كالتعاون ، والغيرية ، والحساسية الاجتماعية ، والجمالية** ، وعلى هذا فنحن نرى أن أطفالنا لا يمكن أن يصبحوا آدميين بكل معنى الكلمة مالم يترعرعوا فى وسط اجتماعى . فجدير بنا إذن أن نربى أطفالنا فى « مجتمع مدرسى » لا يكون صورة مصغرة للمجتمع الموبوء فى العالم الخارجى ، بل خلاصة مثالية أو نموذجاً للعالم ، لا لعوالم الأشياء العادية فحسب ، بل خلاصة للإنسانية جميعها جسمها وروحها ، ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها . وفى ذلك يقول سير برسى نن : « إن مدارس الأمة ما هى إلا عنصر هام فى

حياتها مهمتها الأساسية تركيز قوة الأمة الروحية وحمل تاريخها على البقاء وعلى الاستمرار ، تحرص على مجدها الماضى وتؤمن على مستقبلها ، فعن طريق المدرسة تتمكن الأمة من معرفة المصادر الكامنة التى صدرت عنها جميع الحركات التى أثرت فى حياتها ، ويمكنها أن تقاسم أحسن وأنبل أبنائها أخلاقهم وآمالهم ، وأن ترى نفسها فى مجال النقد دائماً وأن تعلى من شأن مثلها العليا . وعلى الجملة يجب أن تكون المدرسة ملخصاً للعالم المثالى أو نموذجاً حيًّا له — لا لعالم الأعمال العادية فحسب ، بل الإنسانية جميعاً جسما وعقلا ماضياً وحاضراً ومستقبلا » . ولننتقل الآن وقد عرفنا أهمية المدرسة من الوجهة الاجتماعية إلى بيان كيفية نمو الروح الاجتماعية فيها .

(ب) نمو الروح الاجتماعية فى المدرسة

إن الروح الاجتماعية تختلف اختلافاً بيناً عن الغريزة الاجتماعية ؛ فهى صفة من الصفات البشرية ، تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات الاجتماعية كالذئاب أو الماشية ، أما الغريزة الاجتماعية بما يتبعها من سيطرة أو خضوع ، فهى المصدر الذى تنمو منه الروح الاجتماعية . وعندما يذهب الأطفال إلى المدرسة لأول مرة يحملون معهم بذور الروح الاجتماعية التى بذرت فى البيئة المنزلية ، وهذا يدلنا على أن تلك الروح الاجتماعية تبدأ مبكرة فى حياة الطفل فلا بد من تعهدها بالرعاية ، وهذا لا يتحقق إلا إذا نجحت وسائط التربية (البيت — المدرسة — المجتمع) فى خلق الجو الاجتماعى الصالح الملائم لنمو تلك الروح .

ويمكن أن نميز بين أنواع ثلاثة للجو الاجتماعى داخل جدران المدرسة :

أولا : الجو الاجتماعى الذى تخلقه شخصية قوية لمدرس ينزع إلى السيطرة على الغير ولا ينتج ذلك سوى الخضوع الظاهرى لذلك المدرس والانصراف الباطنى عنه .

ثانياً : الجو الاجتماعى الذى يخلقه مدرس ضعيف الشخصية ، وهذا

الجو من شأنه أن يسبب الفوضى والهياج فى صفوف الأطفال . وهذا أمر لا يساعد على الاستفادة من روح الجماعة .

ثالثاً : الجو الاجتماعى الذى تخلقه شخصية حازمة تعالج الموقف معالجة حكيمة بعيدة عن السيطرة والخضوع ، وهذا الجو أقرب ما يكون إلى الجو العائلى : ففيه الكثير من الأخذ والعطاء بين المدرس وتلاميذه وبين التلاميذ بعضهم مع بعض ، وبعبارة أبسط : إن الروح الاجتماعية تتجلى فى هذا الجو واضحة لدى كل فرد من الأفراد . وهذا الجو الاجتماعى هو أنسب الأجواء للتربية والتعليم .

هذا ، وقد أثبتت التجارب بأن الكفاية ، والسعادة البشرية — وانطلاق النشاط البشرى ، والشخصية . كل هذه جميعاً ذات أصل واحد مشترك ، هذا المصدر هو الشعور التام بالتعاون فى عمل من الأعمال لهدف مشترك، ففيه يرتبط الفرد بأخيه ، ويرتبط الجميع بالمجتمع ، وهذه الروابط ليست بروابط العنف المفروضة على الفرد من الخارج (كما هو الحال فى المثل الأول) ولا بروابط الضعف (كما هو الحال فى المثل الثانى) ولكنها ناتجة عن شعور صادق فى التعاون والألفة أو المحبة ، ذلك الشعور الذى يمكن أن نطلق عليه اسم بذور الديمقراطية الحية للتعاون كما فى المثل الثالث .

هذا، وإذا كان الواقع قد أثبت نجاح العلاقات الإنسانية الطيبة والروح الاجتماعية الحسنة ، والتعاون لهدف مشترك — أثبت نجاح ذلك فى ميادين الحياة الكبرى، فجدير بنا أن نتدبر مشكلة الحكم الداخلى للمدرسة من جديد، وبذلك نضمن مسايرة مدارسنا للروح الديمقراطية الصحيحة التى بها يزدهر المجتمع ولا تتعارض معه . ومما لا شك فيه أنه قد أصبح من المعترف به أن المدرسة يجب أن تكون مجتمعاً لا مكاناً لتلقى العلوم فحسب . وسنحاول فى الصفحات المقبلة بيان كيفية تحويل المدرسة إلى مجتمع وذلك لا يتحقق إلا بمراعاة ما يأتى :

أولا : العلاقات الشخصية

إن العلاقات الشخصية بين الأفراد عنصر أساسى فى خلق الجو الاجتماعى الصالح فى المدرسة ، فليس الحكم الذاتى وحده أو ملاءمة الجدول المدرسى لمختلف المواد كفيلا ببث روح الجماعة الصالحة فى المدرسة ما لم يشعر أفراد هذه المدرسة بشعور الرضا الشخصى ، والعلاقة الوظيفية الطيبة بين بعضهم وبعض .

ومما يؤسف له أن نعترف بأن الحالة السائدة فى مدارسنا فى الوقت الحاضر سيئة جداً ، وما علينا إلا أن نقوم بزيارة بعض هذه المدارس لنشاهد ذلك البون الشاسع فى نوع العلاقات الشخصية القائمة بين أفرادها . فمعظم هذه المدارس يخيم عليه شبح الخوف ، والسيطرة والخضوع لناظر مستبد ، بينما القليل منها تسوده روح التعاون ، والحب المتبادل بين الأفراد بعضهم مع بعض ، وذلك نتيجة لرئاسة متزنة وسلطة حازمة رشيدة .

وقد يتوهم البعض أنه بتأكيدنا أهمية عمل ناظر المدرسة أننا نقلل من قيمة الدور الذى يقوم به أعضاء هيئة التدريس ، ولكن فى الواقع أننا لا نقصد ذلك ، فنحن من أنصار العقيدة التى ترفع من شأن المدرسين ، فقد يكون لمدرس واحد من الأثر ما يشبه المعجزات فى تحسين العلاقات الشخصية فى المدرسة . وأنه إذا فقد الانسجام بين أعضاء هيئة التدريس عدمت الروح الاجتماعية انعداماً تاماً . وإذا فقد التلاؤم فى الآراء ، والاتجاهات ، تلاشى الانسجام ، فالعامل الموجه إذن فى تحسين المجتمع المدرسى هو بلا شك موقف ناظر المدرسة واتجاهه نحو أعضاء هيئة التدريس ونحو التلاميذ .

فالعلاقات الأساسية فى مدرسة من المدارس يمكن تشبيهها بمثلث يصح لنا أن نطلق عليه اسم « مثلث القوى الشخصية » الذى يتكون من ناظر المدرسة ، وأعضاء هيئة التدريس ، والتلاميذ . ويمثل رأس هذا المثلث ناظر المدرسة

زد على هذا أن هناك علاقات ثانوية أخرى فيما يأتى :

١ — العلاقة بين أعضاء هيئة التدريس أنفسهم .

٢ — العلاقة بين تلاميذ المدرسة كبارهم وصغارهم .

٣ ــ العلاقة بين الفصول و بين مدرسيها .

٤ ــ العلاقة بين التلاميذ والخدم . . إلخ .

وهذه العلاقات الثانوية تنمو نمواً طبيعياً مرضياً إذا حسنت العلاقات الأساسية :

ولكى تصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً تجب مراعاة ما يأتى :

أولا : أن يعتمد الذين يشغلون الوظائف الرئيسية فى نفوذهم على خدماتهم الأساسية مدى ما يضطلعون به من مسئوليات نحو هذا المجتمع أكثر من اعتمادهم على سلطانهم المطلق ، وشعورهم بهذا السلطان :

ثانياً : يجب أن تكون أهداف الجماعة مرسومة و واضحة الفهم لجميع أفرادها كما يجب أن يتضح الدور الذى ينبغى أن يلعبه كل فرد فى هذه الجماعة .

ثالثاً : يجب قبل البت فى موضوع من الموضوعات أن تستشير كل فرد يتصل بهذه الموضوعات .

رابعاً : يجب أن تتاح لكل فرد فى جماعة من الجماعات فرصة بذل قصارى جهده فيما يقوم به .

وربما يتوهم البعض أن هذه الأمور تعدو نطاق ما تتطلبه العلاقات الشخصية فى المدرسة ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، فالعلاقات الطيبة بين الأفراد تعتمد إلى حد كبير جداً على نمط حياة الجماعة . ومتى نجح المهيمنون على شئون الجماعة فى إيقاظ الوعى الاجتماعى سارت العلاقات الطيبة بين أفراد الجماعة وانتشر فى ربوعها جو اجتماعى روحى من النوع الممتاز ، ومن شأن هذا أن يزيد فى احترام الأفراد بعضهم لبعض وفى طاعتهم للأوامر لأن الجماعة فى هذه الحالة تفهم أن السلطة ضرورية لسير دولاب العمل ، فلا ترغب فى مقاومتها أو الثورة عليها .

ثانياً : التعاون

يعد الناس أنفسهم وغيرهم ليصبحوا كائنات حية مشبعة بالروح الاجتماعية عن طريق المشاركة ، والتعاون . على أن مدى تحقيق ذلك فى المدرسة يحدد

المرحلة التى بلغتها هذه المدرسة فى سلم التقدم الاجتماعى . وتصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً إذا شعر كل فرد من أفرادها بأنه يبذل مجهوداً شعورياً لتحقيق هدف مشترك . والمجتمع الحقيقى مجتمع حيوى ، وذلك بسبب بسيط هو أن كل فرد من أفراد هذا المجتمع مملوء بالروح الابتكارية ومشبع بالمثالية الخلقية ، وذلك لأنه يملك الكثير من الفرص الكافية للتعبير عن مواهبه العقلية ، والروحية . فالمبادئ الخلقية التى لا تخرج إلى حيز العمل هى فى الواقع مبادئ فى طريقها إلى الموت والفناء ، فالمشاركة إذن تعمل على تقدم الصحة الاجتماعية لأى جماعة كما أن لها أثراً واضحاً فى معالجة الميول الضارة بالمجتمع . والآن نتساءل كيف يتسنى لنا أن ننظم حياة المدرسة بحيث يستفيد كل عضو فيها من خبرة هذه المشاركة ؟

علينا أولا وقبل كل شىء أن نحدد الغرض من المدرسة بحيث يمكن أن يدركه كل قارئ ، ويوفر علينا الأستاذ « كارل مانهايم »[1] مؤونة الإجابة عن هذه النقطة قائلا : « إن تقسيم العمل ، وتوزيع الوظائف من غير أن يكون هناك هدف مشترك يهدف إليه الجميع ويؤدى إلى العمل الجزئى ويسلب العمل معناه ، ويجعله هيكلا بلا روح أو حياة » وهذا ينطبق تمام الانطباق على المدرسة ، ومن سوء الحظ نرى أن كثيراً من مدارسنا تعوزها روح الجماعة ؛ فالغرض من المدرسة هو مساعدة الفرد وإعداده ليصبح عضواً نافعاً للجماعة فى المستقبل وهذا الهدف لا يتحقق إلا إذا ارتفعت المدرسة بمثاليتها عن مجرد مكان تلقى فيه المعلومات على التلاميذ إلى مكان يعيش ويحيا فيه الأفراد ويساهمون فى إدارته . وتسيير دفة العمل فيه .

هذا وأعظم وسيلة لتدريب التلاميذ على التعاون والمشاركة يتحقق بدون شك فى مظاهر نشاط التلاميذ خارج جدران الفصل . تتحقق فى المشاريع ، والتمثيليات ، وإلقاء الشعر ، والموسيقى ، والغناء ، والأشغال اليدوية ، والجمعيات الرياضية والكشفية . وهنا يجب أن نذكر التحذير الآتى : وهو أنه إذا كانت

(١) Karl Manheim, Diagnosis of Ourtime, p. 7.

طريقة تنفيذ هذا النوع من النشاط طريقة خاطئة فإن روح التعاون سوف لا تتحقق ؛ فقد تتحول بعض المجتمعات أو الأندية إلى مجرد عصابة ، كما قد يقدم طفل من الأطفال على عمل من الأعمال لأنه يود أن يشعر غيره بالجميل ؛ أو لأن هذا العمل يشعر بأهمية نفسه لا من أجل مشاركة الغير والتعاون معه . ولهذا يلزم ألا يصحب المشاركة إحساس بالزهو ، والترفع على الغير أو الكبر بشرط ألا نكتفي بالدافع الشخصي مجرداً عن الدافع الاجتماعي ، فالدافع الشخصي وحده دون الدافع الاجتماعي يصبح غير كاف . وأخيراً يمكننا أن نلخص ما قلناه مستعيرين لغة الدكتورة «ث . م فلمنج» في كتاب علم النفس الاجتماعي للتربية عندما قالت : « قد أثبتت التجارب أن السلوك أصبح وظيفة لا من وظائف التلميذ فحسب ، بل منتج من نتاج المعاملة التي يلقاها من المدرس ، والمدرسة ، فالطرق الدكتاتورية والأوتوقراطية لا ينتج عنها إلا شخصيات تميل إلى الشغب ومقاتلة الضعيف . شخصيات يعوزها الشعور بالمسئولية ولا سيما عندما تزول عنها عوامل الكبت ، أما بث روح التعاون فينتج عنه انطلاق الطاقة ، والشعور بالسعادة »[1] .

ثالثاً : التكامل

إن المدرسة التي أصبحت مجتمعاً ، هي بلا شك كائن عضوي حي ، مثلها كمثل الجسم السليم تتوقف حيويته على كل جزء من أجزائه ، وعلى سلامة التلاؤم ، والارتباط بين هذه الأجزاء ، ووظيفة الزعيم الديمقراطي فيها الاستشارة ، والهداية ، والإرشاد الحكيم ، والسيطرة الحازمة ، وهذا من شأنه أن يزيد التعاون بين الأفراد القائمين بالعمل ، ويزيد الطاقات البشرية قوة ، وتتمركز هذه القوة في الزعيم الحكيم ، وعندما تسود تلك الروح الطيبة في مدرسة من المدارس ، فإن هذه المدرسة تفهم روح الزعامة بالمعنى السابق . وفي هذه الحالة سيفقد كل من السلطة والنظام خصائصهما السلبية ، وسيصبحان عاملين من عوامل الابتكار ، لأنهما صبغا بالصبغة الاجتماعية . وإذا ما تحقق ذلك يصبح

(١) Flemming, Social Psychology of Education.

المجتمع بوجه عام ، ويصبح كل فرد من أفراده أكثر سعادة ، وأعظم إنتاجاً والوحدة الحيوية العضوية للمجتمع المدرسى مظهر من مظاهر الحياة النشطة فى هذا المجتمع ؛ فالفصل يمهد سبيل التعاون فى المهام المشتركة بين أطفال السن الواحدة . هذا ويجب أن يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بروح الطمأنينة الناتجة عن الانضواء تحت لواء جماعة صغيرة من الجماعات يسود بين أفرادها روح الصداقة القوية تحت زعامة مدرس يرجع إليه كل تلميذ فى طلب النصح والإرشاد . فالمجتمع الطيب هو ذلك المجتمع الذى يشعر كل عضو من أعضائه بأنه عضو مرغوب فيه ونافع له ، ومن هنا ننتقل بالقارئ إلى دراسة الشروط التى تساعد على التفاهم الاجتماعى ، وعلى تقوية روح الجماعة بالمدرسة .

(ح) الشروط التى تساعد على تقوية روح الجماعة فى المدرسة :

هناك شروط عامة لا بد من توافرها إذا أردنا بث روح الجماعة فى المدرسة. وربما نكون قد لمسنا من معالجتنا السابقة لذلك بعض العوامل الهامة التى تساعد على خلق روح الجماعة ، فلم يبق علينا إذن إلا دراسة بعض الاعتبارات ، يجب أن تحظى بعناية هامة فى المدرسة وهذه الاعتبارات هى :

١ — يجب استغلال جميع مظاهر المنهاج المدرسى لنمو الروح الاجتماعية ، والتفاهم الصحيح .

٢ — يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج قائماً على معالجة مشاكل ، وخبرات مناسبة للطفل .

٣ — يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد الأسرة المدرسية الفرصة للمساهمة مساهمة فعلية فى مهام الحياة الاجتماعية بها[1] .

٤ — إن الخبرات المدرسية يجب أن تنظم وتختار بحيث تتيح للطفل فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

---

(١) من عدة مقالات (قام المؤلف بترجمتها ونشرت بصحيفة التربية سنة ١٩٤٧) للأستاذ جيمس هنج James Hemming .

ولنبدأ الآن فى النظر إلى كل عامل من تلك العوامل على حدة ، فلنبدأ بالعامل الأول وهو استقلال جميع مظاهر المنهاج المدرسى لنمو الروح الاجتماعية والتفاهم الصحيح : ينادى البعض بأن تتبوأ المواد الاجتماعية المكانة المناسبة لها فى هذا المضمار ؛ فيجب أن يكون لها القدح المعلى فى خلق الروح الاجتماعية فى المدرسة . ونحن مع تقديرنا لهذا الرأى إلا أننا نؤكد أهمية مساهمة جميع مواد الدراسة فى خلق تلك الروح بدلا من الاقتصار على مادة من المواد ، فالحياة المدرسية يجب أن تكون منظمة بشكل يتكاتف على تقوية روح الجماعة ، فالمشاريع المدرسية التى تتطلب الاحتكاك بين المدرس ، والتلميذ ، وبين التلاميذ أنفسهم تتيح فرصاً لا حد لها لخلق روح الجماعة . ولا نأمل مطلقاً فى زيادة مدلول روح الجماعة لدى أبنائنا ما لم يتمكن هؤلاء الأبناء كتلاميذ من فهم علاقاتهم الاجتماعية السائدة بينهم ، والتى تتجلى فى المشاريع المدرسية السابقة وفى كثير من العلوم ، والفنون ، وغيرهما من المواد التى لها فضل عظيم فى خلق روح الجماعة ، والحساسية الاجتماعية . أما المواد الاجتماعية فلا تمس إلا مظهراً واحداً من مظاهر الجماعة ، ففى العصر الحاضر مثلا تعتمد الحياة « على العلوم » فمن المستحيل فهمها دون الرجوع إلى المادة العلمية وإلى الطريقة العلمية لاستمداد العون منهما . وهذا ولقد لاحظ كبار رجال « العلوم » بأن هذه « المواد العلمية » لا يمكن فصلها مطلقاً عن ملابساتها الاجتماعية ، وأن العلم ، ومستقبله ، إنما هما وظيفة للمجتمع الذى يترعرعان فيه ، فالقيمة الاجتماعية للعلوم تبدو واضحة فى خلق المدنى المستنير ، وبالمثل تظهر قيمة الفن والأدب ، بالإضافة إلى ما لهما من أياد بيضاء فى شرح الشروط الاجتماعية والتغلب على مشاكل الجماعة : فعن طريق الأدب والفن يمكن اكتساب بعد نظر وبصيرة قلما يمكن الحصول عليهما من أى ميدان آخر .

وثانياً : يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج مشاكل ، وخبرات مناسبة للطفل ، فخبرات الأطفال تحددها دائماً بيئتهم المحلية (بيوتهم ، مدارسهم ، مجتمعاتهم) وتشمل هذه الخبرات جميع مظاهر الحياة من غذاء ، ومأوى ،

وعمليات صناعية ، وزراعية ، وتشييد منازل ، وأعمال صحية ، وخدمات اجتماعية ، وما شاكل ذلك . فالطفل عنده خبرة بدائية بالمؤسسات الاجتماعية الأساسية كالبيت ، والكنيسة ، والحكومة ولا يمكنه أن يرى المؤسسة ، كمؤسسة ، ولا الثقافة ، كثقافة ، وإن أهم شيء في نظره هو الطريقة التي تتأثر بها حياته ، وحياة أسرته وجميع معارفه ، وأصدقائه . فالمؤسسات الاجتماعية ليست في نظره أموراً معنوية منظمة ، ولكنها طرق مناسبة تساعد في تحقيق الحاجات الفردية ، والجمعية . وعلى ذلك يجب أن يكون محور التدريس للأطفال دائراً حول المشاكل المتعلقة بخبرتهم ، فهذه المشاكل إذا ما فهمت فهماً حقيقياً تساعد الطفل على أن يتقدم لفهم مشاكل العالم الأكبر ، وبذلك يمكنه المقارنة بين الثقافة التي يعيش فيها وبين الثقافات الأخرى المعاصرة ، كما يستفيد من دراسة ثقافات العصور السابقة ويمكن أن يستغلها في فهم الحاضر .

وثالثاً : يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد أسرة المدرسة الفرصة للمساهمة مساهمة فعلية في مهام الحياة الاجتماعية .

لقد سبق أن بينا أن نمو الروح الاجتماعية ، لا يتعلق بالأمور الدراسية فحسب ، بل يجب أن نشجع الطفل على تكوين عقلية اجتماعية ، واتجاهات عقلية تدفع به إلى المساهمة في كثير من مظاهر نشاط الجماعة والحكومة والدولة ، إذا أردنا تحقيق مثل هذه الأهداف ، فلا بد أن يكون هناك توجيه عن طريقة مساهمة التلاميذ في مظاهر النشاط الاجتماعي . ومن المستحيل أن نلزم فرداً من الأفراد على المساهمة في مهام الحياة الاجتماعية بشكل من الأشكال من غير أن يكون هناك توجيه منظم .

وقديماً أهملت المدرسة تكوين اتجاهات عقلية تساهم في خلق الحساسية الاجتماعية ، وكانت المدرسة منظمة بشكل يساعد على تشجيع المنافسة ، وكان عامل السلطة المدرسية يلعب دوراً كبيراً في الحكومة المدرسية ، ولم يكن للروح الاجتماعية أي أثر في توجيه العلاقة بين المدرس والتلميذ ، وإذن فمن الضروري أن نبدأ بعد هذا بإصلاح تلك الحالة ، وذلك بوضع بذور التعاون الاجتماعي بدلا من

المنافسة وأن نتيح للتلاميذ الفرصة للمساهمة فى المشاريع الاجتماعية الهامة . على أن فرص المساهمة فى النشاط الاجتماعى يجب أن تمتد إلى ما بعد الحياة المدرسية نفسها ، فتشمل المساهمة فى مظاهر الحيـــاة الاجتماعية فى المجتمع الأكبر .

ورابعاً : يجب أن تنظم الخبرات المدرسية ، وتختار بحيث تتيح للطفل فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

من السهل جداً أن ينعزل البرنامج المدرسى عن حياة المجتمع فلا يفهم الأطفال شيئاً عن روح الجماعة ، فقد يلمون إلماماً سريعاً . بنتف عن نظريات الجماعة فى ثنايا دروسهم ولكن هذا قلما يساعدهم فى تكوين روح اجتماعية حقيقية . ولذلك كان من الضرورى ، فى أى برنامج دراسى أن يهتم بتربية روح الجماعة والحساسية الاجتماعية ، وأن تدرس المؤسسات الاجتماعية دراسة تتيح لدارسها فرصة تكوين فكرة صالحة عن الجماعة وأن نواجه المشاكل ، والعيوب بدراسة النظريات للوقوف على طرق العلاج الناجعة، والآن نتساءل : عن موقف الطفل فى هذه الحالة وقيمة الزج به فى مشاكل اجتماعية لا طاقة له بها ، ألا يكون هذا سبباً فى القضاء على روح الأمن عنده ، وهو فى أشد الحاجة إليها لتكوين شخصية متزنة فى المستقبل ؟ ! هذه المشاكل وأمثالها تشغل بال من يحتكون بالأطفال عندما يحاولون التوفيق بين خبراتهم وبين حقائق الحياة المحيطة بهم — ومن المحقق أيضاً أن الخبرات المدرسية يجب أن تلعب دوراً كبيراً فى إشعار التلميذ بالأمن ،فيجب أن تحاول المدرسة أن تبعد عن الطفل مظاهر القلق وعدم الطمأنينة التى خلقتها الحرب الماضية ، وكانت سبباً فى اضطراب الحياة فى البيت وفى المجتمع .

فالخلاصة :

أن حل المشكلة بيد المدرس وحده ، فهو قادر على الحكم على مدى نضج الطفل ، وبقدر نضجه يتمكن من أن يزج به فى مشاكل اجتماعية مناسبة لسنه ، ولخبرته وقدرته بحيث لا يفقده صمام الأمن والطمأنينة، فالوعى

الاجتماعى يتدرج ويبدأ من بدايات بسيطة ، مثله ، فى ذلك مثل أى قدرة من قدرات الطفل ؛ فجدير بالمدرسين أن يكونوا على بصيرة فى إدراك مثل هذه الروح الاجتماعية ، كما يجب أن تكون لديهم القدرة على معرفة متى يجب أن نحمى بعض الأطفال من التخبط فى دياجير مشاكل اجتماعية عويصة على مداركهم . وبالجملة يمكن أن نقول : إن فهم المشاكل الاجتماعية يساير النضج فى شخصية الطفل وفى نمو خبراته . وهذه حقيقة يجب ألا يجهلها كل من يحتك بالطفل .

المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. T.P. Nunn : Education, its Data and First Principles.
3. Sturt and Oakden : Modern Psychology and Education.
4. J.S. Ross : Groundwork of Educational Psychology.
5. T. Raymont : Modern Education.
6. C. Bloor : The Process of Learning.
7. W. Trotter : Instincts of the Herd in Peace and War.
8. M. McDougall : Social Psychology.
9. J. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
10. J.H. Simpson : Sane Schooling.

obeikandl.com